هَل مِنْ عَوْدَةٍ إِلَى الطَّرِيق؟

أَنْظُرُ حَوْلِي؛ فَأَرَىٰ أَشْتَاتًا طَالَ عَلَيْهَا الزَّمَنُ فِي تِيهِ الشَّتَاتِ بَعْدَ أَنْ ضَاعَ مِنْهَا الهَدَفُ وَالطَّرِيقُ، بَلْ تَاهَتْ مِنْهَا الأَقْدَامُ؛ فَمَا عَادَتْ تَرْجُوا النَّجَاةَ!

فَأَضْحَتْ -وَيَا لَلْعَجَبِ- فِي نَشْوَةٍ بَلْهَاءَ بَيْنَ فَكَّيِّ خِنْزِيرٍ ذَمِيمٍ .. يَتَثَائَبُ فِي خُمُولٍ، يَنْظُرُ إِلَىٰ شُخُوصٍ تَتَرَاقَصُ فَوْقَ رِمَالٍ مُلْتَهِبَةٍ، تُضْرَمُ مِنْ تَحْتِهَا النِّيرَانُ .. يَنْفُخُ فِيهَا .. يُؤَجِّجُهَا .. يَسْتَحِثُّ البُلْهَ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الرَّقْصِ لِإِسْعَادِهِ!!

يَتَلَاوَمُ الشَّتَاتُ، فَكِلَاهُمَا يَرَىٰ غَبَاءَ الشَّتِيتِ الَّذِي لَا يَرَىٰ مَا يَرَاهُ! يَغْلِي الدَّمُ فِي عُرُوقِهِ .. يُرْغِي وَيُزْبِدُ: يَا لَهُ مِنْ غَبِيٍّ! كَيْفَ يَشْعُرُ بِنَشْوَةٍ وَهُوَ فِي عَيْنِ الخَطَرِ؟ إِنَّ مِثْلَهُ لَا تَنْفَعُ مَعَهُ نَصِيحَةٌ وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ نَصِيحَةٌ!

***

وَهَكَذَا يَفُوزُ الذَّنِيمُ بِالغَنِيمَةِ، وَالضَّحَايَا عَلَىٰ الأَكْثَرِ .. يَشْجُبُونَ .. يُنَدِّدُونَ .. يَتَلَاوَمُونَ .. وَلَكِنْ أَبَدًا .. لَا يَتَحَرَّكُونَ .. وَ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرَّعْد/ ١١).

وَلَا يَعْرِفُونَ إِلَىٰ أَيْنَ هُمْ سَائِرُونَ، وَلَا أَيِّ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَ؟! تَائِهُونَ .. ضَائِعُونَ، مُشَتَّتُونَ، مُتَلَاوِمُونَ، مُتَحَارِبُونَ، يَرُونَ غَيْرَهُمُ الفَرِيسَةَ، وَكُلُّهُمْ يُؤَيِّدُ

الصَّيَّادَ؛ بَلْ مِنْهُمْ .. وَيَا لَلْعَجَبِ .. مَنْ يُؤَلِّهُ الصَّيَّادَ!

حَالُهُمْ كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمَانِ:(١) "كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا انْفَرَجْتُمْ، عَنْ دِينِكُمْ؛ كَمَا تَنْفَرِجُ المَرْأَةُ عَنْ قُبُلِهَا لاَ تَمْنَعُ مَنْ يَأْتِيهَا. قَالُوا: لَا نَدْرِي. قَالَ: لَكِنِّي -وَاللهِ- أَدْرِي، أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ عَاجِزٍ وَفَاجِرٍ".

غَرْقَىٰ فِي بِحَارِ الأَوْهَامِ مِنْ غَيْرِ رُبَّانٍ وَلَا مَرْكِبٍ، يَتَشَبَّثُونَ بِأَطْوَاقِ نَجَاةٍ مُمَزَّقَةٍ تَغُوصُ بِهِمْ إِلَىٰ الأَعْمَاقِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ (النُّور/ ٤٠).

***

لَقَدْ بَانَ الطَّرِيقُ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ؛ كَمَا قَالَ الجُنَيْدُ: "كُلُّ الطُّرُقِ إِلَىٰ الجَنَّةِ مَسْدُودَةٌ إِلَّا طَرِيقَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ"، فَهَلْ نَعُودُ إِلَىٰ الطَّرِيقِ بَعْدَ كُلِّ هَذَا التِّيهِ وَالضَّيَاعِ رَافِضِينَ كُلَّ سَبِيلٍ سِوَاهُ؟ قَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ خَطَّ خَطًّا بِيَدِهِ:(٢) «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا**» ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

---

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ بِلَفْظٍ قَرِيبٍ، وَصَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِر.

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ الكُبْرَى.

عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأَنْعَام/ ١٥٣).

إِنَّهُ سَبِيلُ الله -دُونَ لَبْسٍ وَلَا غُمُوضٍ- لَا سَبِيلَ الشَّرْقِ وَلَا سَبِيلَ الغَرْبِ، فَهَـلَّا اتَّبَعْنَاهُ وَدَعَوْنَا إِلَيْهِ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ سَبِيلَ النَّجَاةِ؟ وَلَكِنْ كَمَا أَمَرَ نَبِيَّـهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ (يُوسُف/ ١٠٨).

***